مجلة جامعة الملك سعود، م ٢، العلوم التربوية (٢)، ص ص ٦٦١-٦٧٧ (١٤١٠هـ / ١٩٩٠م)

شباك القلة في الفن الإسلامي والاستفادة منه في مجال التربية الفنية

عبدالحميد الدواخلي

أستاذ مشارك، قسم التربية الفنية، كلية التربية، جامعة الملك سعود، الرياض، المملكة العربية السعودية

ملخص البحث. قامت فلسفة الفن الإسلامي بوجه عام والتطبيقي منه بوجه خاص على تأكيد الجانبين الفني والنفعي معًا، ذلك لأنه فن وظيفي جمالي. وحينما تناولت يد الفنان المسلم مظاهر الحياة المختلفة نجد أنه قد اهتم اهتمامًا بالغًا بكل مشغولة فنية مهما صغر حجمها أو قل استخدامها. ولعل شباك القلة يؤكد لنا جانبا من هذا الأمر.

وقد ظهرت شبابيك القلل بصفة أساسية في القطر المصري دون غيره من أقطار العالم الإسلامي. والشباك عبارة عن قرص دائري يقع بين رقبة القلة وبدنها في وضع مستعرض، وهو بمثابة الحاجز الذي الذي يعمل على تنظيم تدفق المياه عند الشرب.

وقد زخرف الفنان المسلم شبابيك القلل بزخارف متعددة: نباتية وحيوانية وهندسية، كما استخدم في ذلك أيضًا بعض الكتابات من الخط العربي التي تحمل حكمًا ومواعظ تسهم في إرشاد الناس وتقويم سلوكهم.

وبدراسة نماذج من شبابيك القلل وتحليلها من الوجهة الفنية والجمالية يمكن الاستفادة منها في مجال التربية الفنية، حيث تفيد هذه الدراسة في إثراء قدرات الطلاب الإبداعية وتدفعهم إلى محاولة ابتكار مشغولات فنية جديدة تجمع بين القيم الجمالية والوظيفية في آن واحد.

مقدمة

يتضح من الفلسفة الأساسية للفن الإسلامي بكل إنتاجاته الفنية وبخاصة التطبيقية منها التي تمتلىء بها متاحف العالم وتتعرض بالتحليل لها المراجع الأثرية والفنية والاجتماعية وغيرها، أنها عادة ترتبط برباط وثيق بالقيم الجمالية والنفعية على السواء، مما جعل ذلك يشكل سمة من أهم سماتها، وبذلك يمكن القول إن الفن الإسلامي في أهدافه، قد سبق أهداف مدرسة (الباوهاوس) بأكثر من ألف عام، تلك المدرسة الألمانية التي كانت تنادي في القرن العشرين [١، ص١٥٨] بأن الفن لابد أن تكون له وظيفة نفعية وجمالية على السواء.

ولقد تناولت يد الفنان المسلم مظاهر الحياة المختلفة وأضفت عليها الكثير من اللمسات الإبداعية الرائعة الخالدة ولم يكن ذلك الفنان قاصرًا على عرض إنتاجاته فقط على الطبقات العليا في المجتمع ولكنه ساهم بطريق مباشر أيضًا في إمداد المجتمع كله بجميع مستوياته الاجتماعية بإنتاجاته الفنية المحملة بالقيم الجمالية والوظيفية والنفعية على السواء.

ولعل شبابيك القلل ذلك الإنتاج الفني المرتبط بالشعب يوضح بجلاء اهتمام الفنان بإمداد أفراد الشعب بحس جمالي تذوقي فريد حيث لم تمارسه حضارة فنية في التاريخ على الإطلاق. وبالمتحف الإسلامي بالقاهرة مجموعة نادرة من هذا الإنتاج لم تتوفر في المتاحف الأخرى.

أصل شباك القلة

تبين من خلال الدراسات الفنية والأثرية أن نشأة هذا الفن كانت في مصر حيث اختصت به دون الأقطار الإسلامية الأخرى. وقد أمدتنا حفائر الفسطاط في مصر القديمة بالقاهرة بأنواع متباينة لهذا الإنتاج الفني الفريد.

والقلة إناء فخاري متنوع في الشكل والحجم والهيئة يستخدم للشرب صيفًا وشتاء ويشكل من خامات طينية محلية بواسطة عجلة الخزاف ثم تترك لتجف وتحرق في أفران خاصة لتصبح فخارًا مسامي الجسم وهي تستخدم لذلك الغرض منذ زمن بعيد، ومازالت

تستخدم حتى الآن في المناطق الشعبية وفي بعض البلدان الإسلامية ولكن ينقصها في الوقت الحاضر «شباك القلة» الفني بزخارفه الرائعة .

يلجأ الفنان لطرق دقيقة متتابعة في عملية إخراج مثل هذه الأشكال، فيبدأ بتحضير الخامة الأولية للتشكيل وعادة ما تكون من الطفل الناتج من سيول الأمطار ومن بعض المحاجر الخاصة ومن طمي نهر النيل المترسب على جوانبه، ثم يخلط خلطاته من الطفل المتعدد المصادر ثم يعدّها ويجهزها تجهيزًا دقيقًا حتى تصبح ذرات الكتل الطينية موحدة متجانسة خالية من كل الشوائب الضارة ثم يبدأ في تشكيل جسم القلة أولاً، ثم تشكيل الرقبة بعد ذلك مع وضع شباك القلة معها والتي تشكل قبل ذلك منفصلة داخل قوالب جصية خاصة وقد عثر على أحد هذه القوالب وهو موجود بالمتحف الإسلامي بالقاهرة ومعه مجموعة رائعة من أشكال شبابيك القلل المزخرفة بزخارف متنوعة .

ويمكن أن تكون بعض هذه الشبابيك قد عملت بطريقة واحدة، إذ إن تصميم الزخارف وإخراجها تشير إلى ضرورة وجود مثل هذه القوالب لدقة الرسوم وحساسيتها ثم يتم بعد ذلك لصق كل هذه الأجزاء (الشباك مع الرقبة مع جسم القلة) في حالة تجليد الطين (أي يكون الطين لدنا) .

ولكن إنتاج القلل في وقتنا الحالي قد أهمل زخرفته مثل هذه الشبابيك التي أمدنا التراث بها واكتفى ببعض ثقوب عشوائية في الشباك كي تؤدي القلة وظيفتها النفعية فقط .

وبعد أن يتم ضم جميع الأجزاء بعضها مع البعض الآخر تترك لتجف تمامًا ثم ترص داخل أفران خاصة وبطريقة محكمة لتتم عملية الحريق بكل دقة وعناية بحيث تتنوع درجات الحرارة داخل الأفران بانتظام تام وتتم تدريجيًا وببطء في أول الأمر ثم تزداد درجة الحرارة إلى ٨٥٠° مئوية حتى تصبح الأشكال «فخارا» أي تنضج بعد الحريق وتكون مسامية حتى تؤدي الوظيفة بنجاح في تبريد مياه الشرب . وقد عثر على بعض هذه الشبابيك وعليها طلاء زجاجي مصهور مما يشير إلى وجود قلل من هذا النوع ويقال إنها كانت تصنع لطبقة الأغنياء من المجتمع . ولكنها كانت نادرة وربما كانت تستعمل وقت الشتاء للشرب .

قيمة الشباك

الشباك في القلة عمل فني يقوم به الفنان الشعبي في مساحة محددة تقع بين رقبة القلة وجسمها يكون عادة في مساحة دائرية الشكل يزخرف بطرق شتى سواء بالتشكيل الحر أو باستخدام القوالب أو بالطريقتين معا. ويلاحظ أن هذا الجانب من الفن الإسلامي لم يهتم به الكثير من المؤرخين، ولكن الفنانين والخزافين المتخصصين يرون في هذا الإنتاج جدة وإبداعًا ونمطًا فريدًا ينبغي الاهتمام به كما أشار بذلك أحد رواد الخزف في مصر [٢، ص ص٣٣٧-٣٤٩] حيث يعتبره فنا كبيرًا لابد من تقديره والاهتمام به ودراسته.

وقد قام (بيير أولمر) P. Olmer بعمل دراسة عن شبابيك القلل [٣]، محاولا تقسيمها إلى موضوعات بحسب دقة رسومها ونوع صناعتها وقد رأى أن الأشكال الزخرفية البسيطة وغير المنتظمة تنتمي إلى العصر الطولوني وأن ما ينسب إلى العصر الفاطمي امتاز برسوم الحيوانات والطيور. أما الكتابات بالخط النسخي فتنسب إلى عصر الأيوبيين كما أنه ينسب إلى عصر المماليك مجموعة تمتاز برسومها الهندسية الدقيقة ورسوم بعض الشارات «الرنوك» ـ التي نعرفها في سائر التحف المملوكية ـ، أن هذا الميدان يشهد للفنانين بحس الذوق ودقة الصنعة وبراعة التخيل والابتكار في الزخارف ويشير إلى أن ذلك الخزاف المسلم كان رائدًا في جعل الفن لذاته كما ويشير إلى أنه ربما كانت وظيفة هذه الأشكال هي حفظ الماء نظيفًا فضلاً عن تنظيم تدفقه بهدوء وانتظام. وقد عثر على بعض التوقيعات لمنتجي هذا النوع الفني من بينهم (عمل عابد) (عمل قاسم) (عمل مصري) وغيرهم، ويرى «بيير أولمر» أن الفنان هنا ربما تمسك وترجم بعض الأحاديث الدينية التي تشير إلى كيفية شرب الإنسان للماء من وعاء ما حيث كانت تؤكد أن الشرب لابد أن يتم بهوادة وتؤده وعلى ثلاث مرات كلها لصالح الشارب نفسه وعملية شباك القلة وتفريغاته تساعد في ذلك الهدف.

وقد اهتم الخزاف المسلم بمثل هذه التفريغات المتنوعة في الزخارف والوحدات وكذلك توظيف الخط العربي في كتابة بعض الحكم والمواعظ مثل: اقنع تعز ـ العز قادم ـ دمت سعيدًا بهم ـ عف تعاف ـ من صبر قدر ـ فاز من اتقى ـ من خف طف ـ وغيرها من الحكم والمأثورات الشائعة التي كانت تهذب سلوك الأفراد وتساعد في تقويمهم بطريق غير مباشر.

إن هذا الإنتاج يشير في دقة وبراعة إخراجه إلى الصلة بينه وبين أعمال «الدانتلا» [٣، ص ص ١٨٦-١٩٠]. وتسجياتها وخيوطها الدقيقة وهذا الفن فريد في طرازه حيث يتصف به الفنان الشعبي في مصر دون غيره من الفنانين وذلك في إطار من وحدة الفن الإسلامي وتنوعه.

ونظرًا لعدم احتواء القلة على أي نوع من الزخارف فقد حرص الخزاف على عدم إهمال هذا الجانب الجمالي فقام بتشكيل شباكها من الداخل بالزخارف المتعددة وقد سماه بعض المؤلفين [٤، ص ص ١١-٦٠] (مصفاة) وموقعه كما أسلفنا بين الرقبة والبدن.

وهناك نوع من الوحدات الزخرفية لم تتعرض له معظم المراجع وهو وجود تصميمات لمنازل أمامها شجيرات النخيل وقوارب وسفن وأشكال طبيعية محورة مثل الفهد والأسد والغزال والفيل والحمام والطاووس والأسماك كما توجد أشكال خرافية مثل طائر بوجه آدمي ورسم التنين وغيرها، ويوجد بمتحف دمشق قلة عليها توقيع الفنان (سعد) وربما يكون هو الخزاف المصري المشهور الذي عاش في أواخر العصر الفاطمي.

ولقد كانت الفترة الفاطمية في مصر تمثل طفرة رائعة للخزافين خصوصًا فيما ابتكروه من البريق المعدني الخزفي وكذلك ثراء زخارفهم من طيور وأسماك وحيوانات وأشكال هندسية ويمكن تبعًا لذلك المناخ أن يكون هناك علاقة أكيدة بين الفنان الشعبي وتلك الأجواء الفنية التي اقتبس من ذروتها في إنتاجاته الشعبية المتعددة وخصوصًا في مثل شبابيك القلل موضوع البحث بما تحمله من زخارف تعكس التيار السائد آنذاك.

الجوانب التربوية والتعليمية والنفعية في شباك القلة

بدراستنا الدقيقة لمختارات من شبابيك القلل الإسلامية ومحاولة تحليلها من وجهات متعددة تذوقية وجمالية ونفعية واجتماعية يمكن لنا خاصة في مجال الفن والتربية الفنية أن نرى عائدًا تربويًا وفنيًا كما يمكن الاستفادة منه في مجالات مختلفة نذكر منها ما يلي:

١ ـ يمكن في مجال التربية الفنية تنفيذ بعض الأشكال الفنية تصلح في الإضاءة مثل الأباجورات سواء منها الثابتة أو المعلقة على الجدران (أبليكات) متخذين التفريغات التي لمسنا تقنياتها في شبابيك القلل منطلقًا لعمل تصميمات مبتكرة حديثة.

٢ ـ إيجاد تصميمات جديدة لمزهريات وبعض الأواني المختلفة بها سمة التفريغ.

٣ ـ عمل مشكاوات مفرغة ينطلق منها الضوء.

٤ ـ استغلال عنصر التفريغ في الدلايات والقلادات.

٥ ـ تذوق مثل هذه التفريغات من حيث قيمها الجمالية والتشكيلية والتقنية كوسائل معينة.

٦ ـ وجود مثل هذه الأشكال المبتكرة في المنازل في متناول البصر من شأنه توسيع دائرة التذوق الفني.

٧ ـ ربط النشء بتراثهم الفني والاستفادة منه في تصميمات حديثة.

٨ ـ الاستفادة من هذا الجانب الشعبي التلقائي الفطري بتعبيراته البسيطة خصوصًا في مرحلة المراهقة حيث يجد الفرد ما يقترب من ميوله وقدراته وعدم تقيده بقواعد كلاسيكية جافة صارمة تحد من قدرته الابتكارية.

٩ ـ الاستفادة من التقنيات التي تفرعت عن هذا الإنتاج الفني وكلها خبرات مهمة للمتعلم لاسيما الجانب التجريدي المهم والتقنيات المصاحبة.

١٠ ـ الحكم والأحاديث والأمثال الشعبية التي وجدت على الكثير من هذه الشبابيك تربي النشء وتنمي سلوكه نماء غير مباشر.

١١ ـ استغلال سهولة استخدام هذه الخامة الطيعة وهي الطين، في تشكيلات مثيرة قد تعجز عنها خامات أخرى لاسيما في عملية التشكيل والبناء والتركيب الفني.

١٢ ـ يمكن عمل لوحات فنية (مسطحة) تعتمد على التفريغات وتقوم مقام التابلوهات التي تزين بها الجدران حاليًا لاسيما ومساحة هذه المسطحات صغيرة وتناسب ضيق الأماكن في الوقت الحالي.

هذه بعض لمحات من الفوائد التي يمكن أن تمد مدرسو التربية الفنية وكذلك الفنان نفسه في الاستفادة منها وإبداع أشكال وتعبيرات مبتكرة تلائم العصر.

ونرى في عرض بعض الصور لشبابيك القلل زيادة في إفادة القارىء من هذا الجانب الفني من التراث الإسلامي .

وجميع هذه الأشكال ذات تصميمات ووجدات متنوعة تشير إلى سيطرة الفنان وحذقه في عمليات التشكيل والزخرفة والعلاقة الجمالية بين الشكل والأرضيات وأنغام السطوح واتجاهات إيقاعاتها مع المحافظة على الوحدة والتماسك وقوة التصميم، كما أن النظرةالساذجة السطحية ترى الوحدات الصغيرة كما تبدو متكررة تكرارًا آليا ولكن أمام الدارس المحقق الواعي يرى في هذه الوحدات التي تسير هنا وهناك تنوعا رزينا ومعلوم أن التنوع عنصر مهم من عناصر الجمال لم يهمله هذا الفنان بحسه ووجدانه المرهف .

المراجـــع

[١] الشال، عبدالغني . *مصطلحات في الفن والتربية الفنية* . الرياض : عمادة شئون المكتبات، جامعة الملك سعود، ١٩٨٤م/١٤٠٤هـ .

[٢] محمد، حسن زكي . *فنون الإسلام* . القاهرة : دار النهضة المصرية، ١٩٤٨م .

[٣] الألفي، أبو صالح . *الفن الإسلامي أصوله ـ فلسفته، مدارسه* . القاهرة : دار المعارف؛ ١٩٨٤م .

[٤] نورتن، ف. *الخزفيات للفنان الخزاف*، ترجمة سعيد الصدر. القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦٥م .

[٥] أبو بكر، عبدالمنعم وآخرون . *القاهرة في ألف عام* . القاهرة: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٩م .

[٦] ماهر، محمد سعاد . *الفنون الإسلامية* . القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب .

شكل رقم ١ . شباك قلة عليه رسم لآدمي محور.

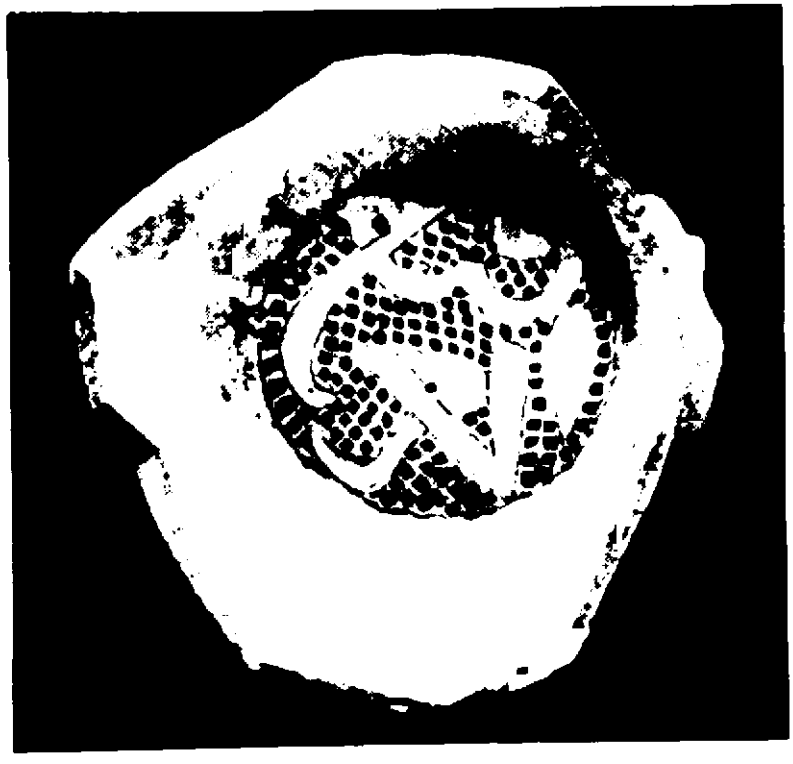

شكل رقم ٢ . شباك قلة عليه رسومات من الكتابة العربية .

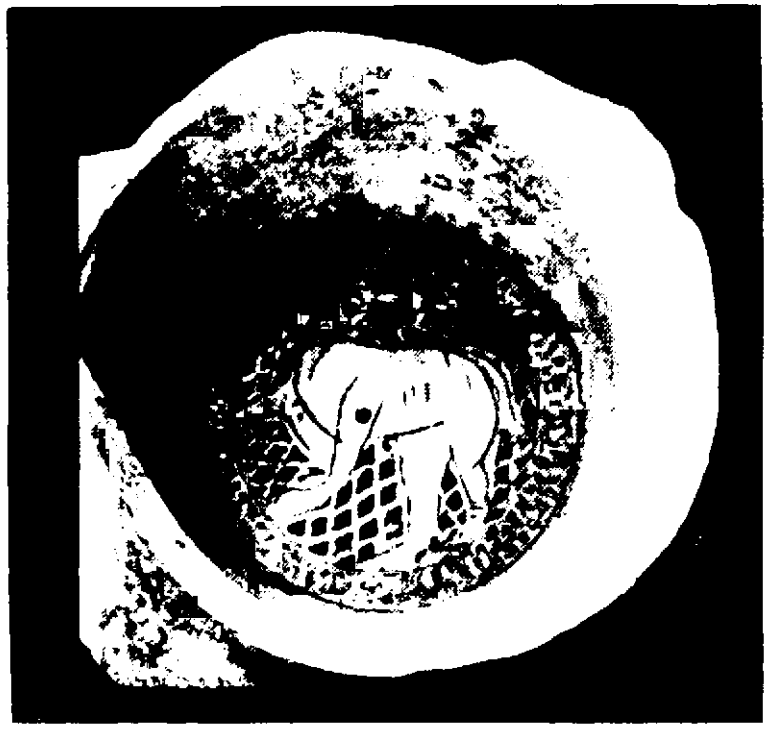

شكل رقم ٣ . شباك قلة عليه رسم فيل .

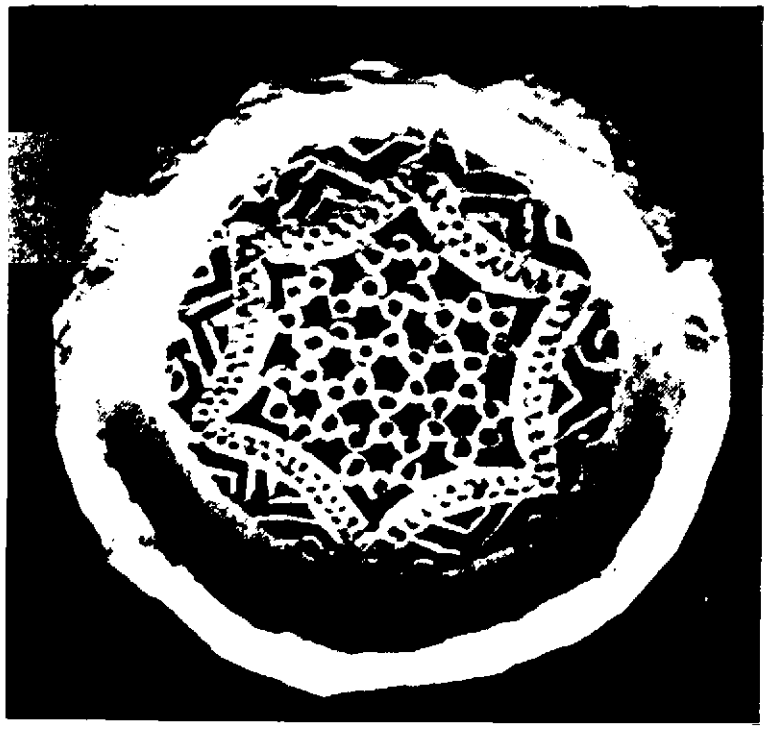

شكل رقم ٤ . شباك قلة عليه رسم أشكال هندسية .

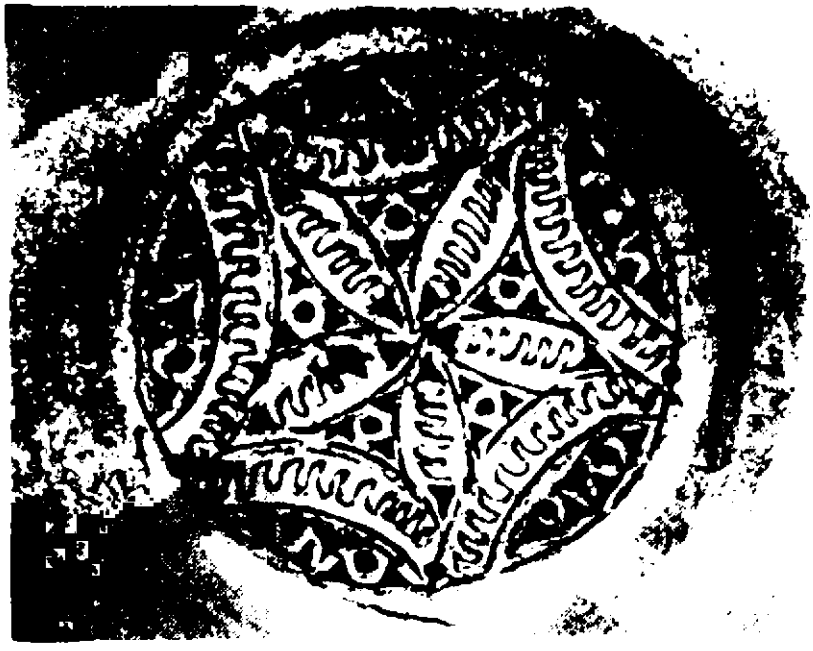

شكل رقم ٥ . شباك قلة عليه رسم زخارف عربية متكررة .

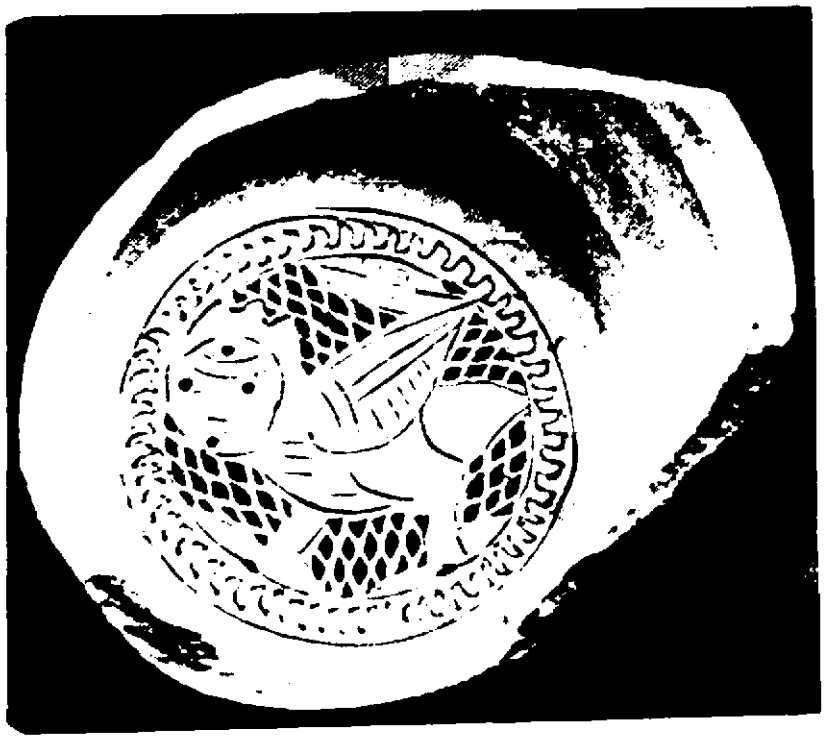

شكل رقم ٦ . شباك قلة عليه رسم لطائر برأس آدمي .

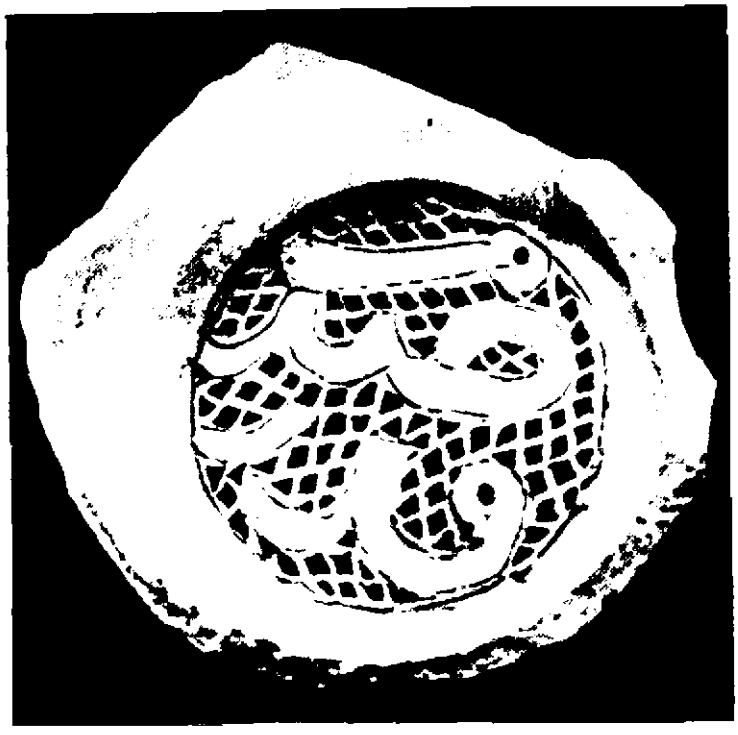

شكل رقم ٧ . شباك قلة عليه كتابة من صبر قدر.

شكل رقم ٨ . شباك قلة عليه رسم لشكل آدمي فيه مبالغة .

شكل رقم ٩ . شباك قلة عليه رسم لشخص يحمل كأسا .

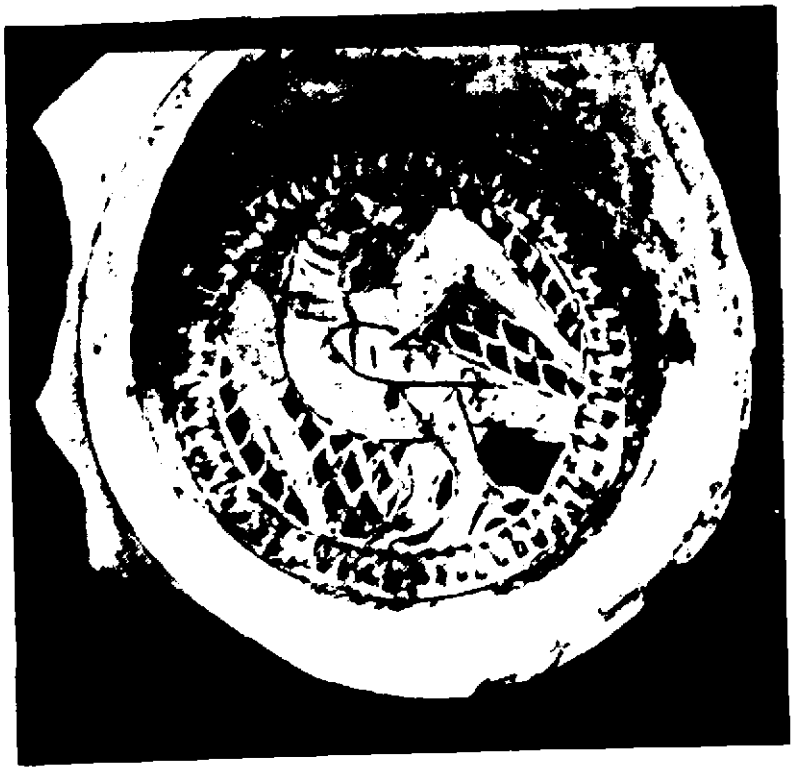

شكل رقم ١٠ . شباك قلة عليه رسم طائر ينشر جناحية .

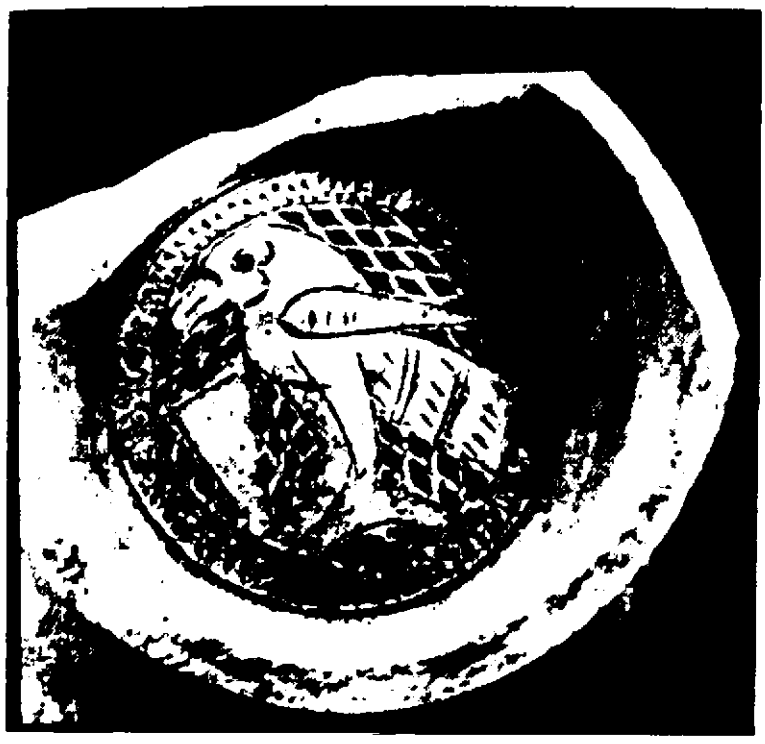

شكل رقم ١١ . شباك قلة عليه رسم طائر أمام كأس .

شكل رقم ١٢ . شباك قلة مكتوب عليه العز قادم .

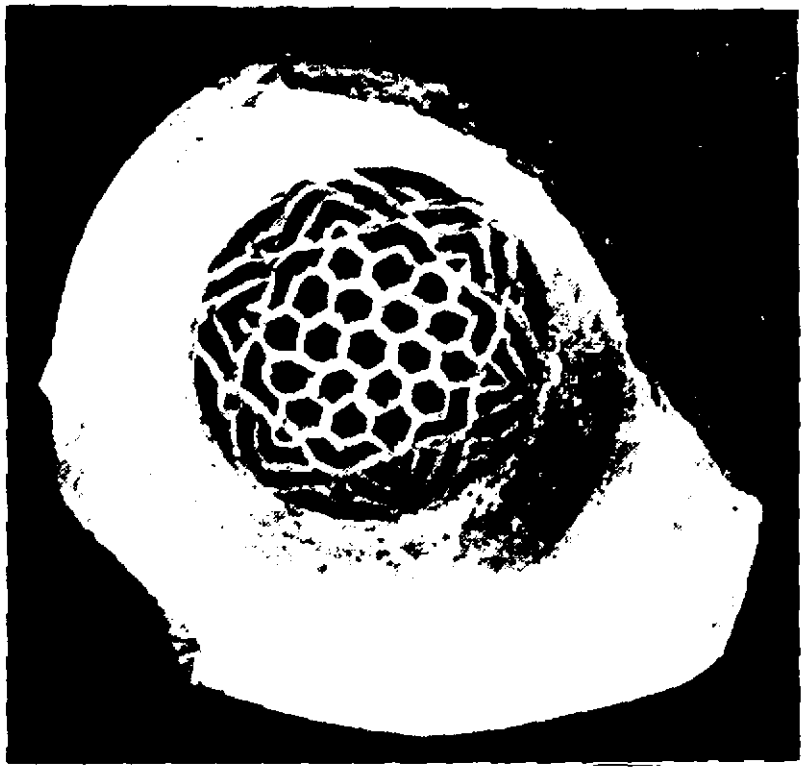

شكل رقم ١٣ . شباك قلة عليه تقسيمات وزخارف هندسية .

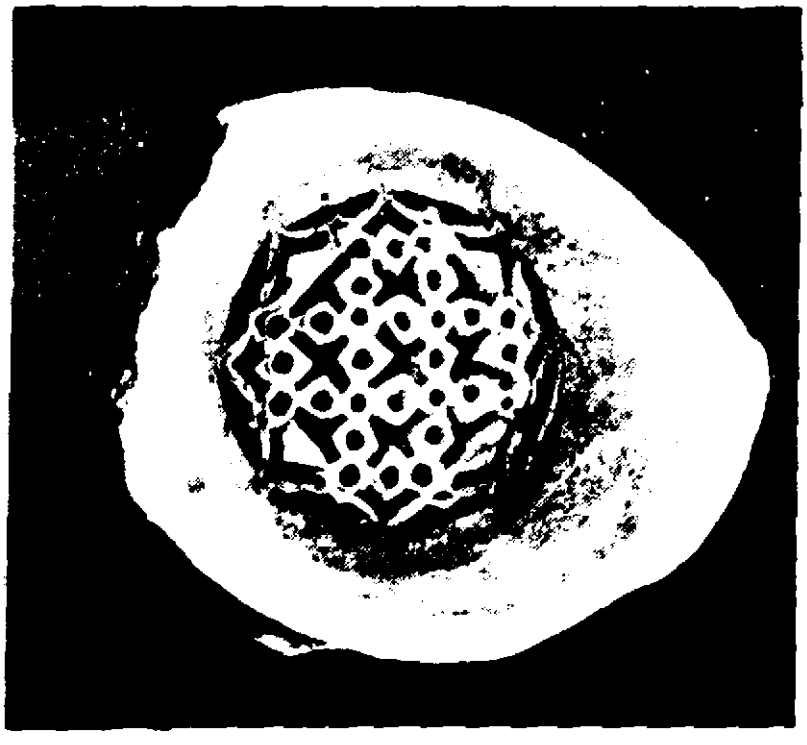

شكل رقم ١٤ . شباك قلة عليه زخارف هندسية مكررة .

شكل رقم ١٥ شباك قلة عليه رسم طائر وسمكة .

شكل رقم ١٦ شباك قلة عليه حروف عربية .

شكل رقم ١٧ . شباك قلة عليه رسم طائر بطريقة حرة .

Islamic Interior Pot's Neck Decoration and Its Educational Value for Art Students

Abdul-Hamed Al-Dawakhli
Associate Professor, Art Education Department, College of Education, King Saud University Riyadh, Saudi Arabia

Abstract. The philosophy of Islamic art — be it fine or applied — has always taken into consideration the functions of utility besides the aesthetic ones. Aesthetic values have never been the sole aim of this art. At the same time the smallest artifacts were carefully decorated even if they were not to be used so often. The interior pot's neck decoration illustrates this fact. This decoration is found only in Egypt. The Muslim Egyptian artist invented it and it is placed in the opening between the neck of the pot and the main body. The utilitarian aim of this decoration is to organize the flow of water during drinking. These openings were decorated with numerous designs derived from animals, plants or geometry. Arabic calligraphy was also used and it was in form of proverbs admonishing people and directing them to proper etiquette. Studying these circular water pots designs could be of great use to the art students who will discover the creative abilities of those artists who created them. They will help in opening new horizons for the students in exploring new artistic values.